٤ ـ عمرو بن العاص

بقلم حسين مؤنس

تتمـــــة

وانتظمت جيوش معاوية واتخذت سبيلها الى الشام لتثأر لعثمان الشهيد ... ولم يعد فى نفس أحد منهم شك فى أن عليا هو قاتل عثمان ... وأن حربه والانتقام منه فرض واجب على المسلم الصادق الأمين ، ومضى معاوية وعمرو على حصانيهما يتحدثان فى الطريق وإن معاوية ليحس خطر هـذا الرجل الصامت الى جانبه ... إنه ليعجب من هذا العقل الكبير الذى لا يقصر عن غاية ولا يعجز عن أمر ... وإنه ليخشاه ويرى سلطانه مهددا بوجوده ... ولكنه يحتاج اليه ولا يكاد يستغنى عنه فى هذه الملحمة المقبلة ... ولم يكن عمرو ليفكر فى غير ذلك ! ولكنه لم يكن منصرفا اليه هذا الانصراف كله ... فهو يعرف حاجة معاوية اليه ولا يخشى منه أمراً ... بل هو يفكر فى أمر آخر ، إنه ليفكر فى على وقوته ... ويحسب حسابها ويسأل نفسه ، ترى ما ذا أفعل لو انتصر علىّ على وهو أمر معقول جدا ... وإن عليا لفارس العرب وسيف الله البتار ؛ وإنه لصاحب الأيام البيض الخوالد والغزوات الزهر الباقيات ، وإن معه لنفرا من الفرسان الصناديد الذين يخشى منهم أى خشية .. فيهم الأشتر النخعى وفيهم من أصحاب الرأى ابن عباس ، وإن فى هؤلاء لغناء ومنعة من الفشل ... فما ترى ابن العاص فاعلا والأمر خطر والبلاء شديد ؟

وانتهت الجيوش إلى ضفاف الفرات ، واقتربت من طلائع على وعسكرت فى موضع سهل ومنعت الماء عن على ... وباتت قوات على عطشى حتى عيل صبرها فحملت على الشاميين فأجلتهم عن موضع الماء ... وبات الشاميون عطشى فندبوا من يسأل عليا الماء فأجاب ! ... وتلك كانت علة الرجل التى انتهت به الى الهزيمة فى ذلك الميدان ، فكيف يثبت الطيب الخبيث ، والرقيق للقاسى ، والايمان للحيلة والدهاء ! [1] وزاد الأمر بلاء أن عمرا أدرك موضع الضعف من على ، وسراه سباقا الى الاستفادة من إيمان على وشهامته ... انظر اليه قبيل صفين ... إنه يدور بعينيه فى معسكر على ليختار الدهاة والخبثاء ويتصل بهم ويشككهم فى أمرهم ... هذا الأشعث بن قيس يتفاهم مع عمرو ، وهذا أبو موسى يبدأ يشك فى حق على ... ثم تبدأ الكتائب القوية فى جيش على نفسه فتقعد هم الناس وتفتر عزماتهم ... ويرون قتال أعداء على تعبا لا طائل وراءه ، وإن عليا ليلزم جنوده شدة لا يطيقونها ، وإنه ليمنيهم بالجنة دون الغنائم والأسلاب ؛ وهؤلاء جنود الشام عليهم النعمة ظاهرة والخير وافر : وذلك عدل من معاوية ، وكياسة من عمرو ! ثم انظر إلى ميدان صفين : كيف تهم طائفة من أصحاب على فتكتسح العدو اكتساحاً وتكاد تأتى على معاوية ، وكيف تتقاعس طائفة أخرى حتى تكاد تفر من الميدان ، وكيف يلقى على مقاومة من أنصاره ومعارضة من قواده . لقد تغيروا . لقد داخل نفوسهم الشك فى عدالة قضيته ؛ وإنهم ليرون ظل عثمان ماثلا على خلافة على ثقيلاً رهيباً . بلى وهذا الأشعث يقعد عن المضى ، وهذا الأشتر يمضى ، حتى تكاد الهزيمة تحيق بمعاوية . ويشتد الأمر بجند الشام وينظر عمرو حواليه ، فاذا الأمر مقضى ، وإذا الهزيمة قاضية ، فينحى على معاوية ويلومه لوماً شديداً . لقد بدا له أنه « خسر الصفقة » وأن السوق قد أتت بغير ما كان يقدر . إنه لثائر مغضب يلوم معاوية ، فيشتد فى لومه ، وإنه ليعتبره مسئولاً عن الخسارة التى حاقت به ، وإنه ليصارحه برأيه ويكنون سره ويقول له : « يا معاوية : أحرقت قلبى بفصصك ؛ ما أرى أننا خالفنا علياً لفضل منا عليه ! لا والله ، إن هى إلا الدنيا نتكالب عليها ، وايم الله لتقطعن لى قطعة من دنياك أو لأنابذنك . » [1] وإنه ليندم على ما أتى من انضمامه ، وقد نسى قدر على وقوة جنوده ؛ والآن اتضح له الحق فهو يلوم ويندم ، ولكن ماذا يجدى ، وإن الخطر ليقترب ، وان جنود على لتكاد تمس جفاء معاوية ؛ وإنه ليركب حصانه ، ويهيب بعمرو : « الله ... الله ... فى الحرمات والنساء والبنات : هلم نخبآنك يا ابن العاص فقد هلكنا » ، ولكن كيف يسرع ابن العاص إلى نخبآته ، ويطوى

(١) ابن قتيبة « الامامة والسياسة » ج ١ ص ١٧٢

(١) رواه الذهبى ، وأنا أشك فى صدق الجزء الأخير من « وايم ... » لأنه كان قد سبق للاثنين الاتفاق قبل الشروع فى العمل

خيامه ويلوى هارباً ، وما بعد ؟ ... إنه لينظر بعيداً ، وإنه ليرى علياً متعقباً إياهم حتى يقبض عليهم فى عقر دارهم ... كان هذا أمراً يخيف ابن العاص ... فانظر كيف يستغيث وكيف يحتمى بكتاب الله ... لقد عرف أن فى بعض رجال على ميلاً إلى المهادنة وترك القتال . فرأى الاستفادة منهم ... ثم أخذ يسأل نفسه قائلاً : ترى أى شىء يجله هؤلاء القوم فى هذه اللحظة التى تنكروا فيها لكل شىء ؟ فتجيبه نفسه : كتاب الله ... فيجيبها : فلنعتصم منهم بكتاب الله ، ولنرفع المصاحف على الرماح ؟ فيجيب نفسه ... بلى ... هو الرأى الصواب . فترفع المصاحف على الأسنة ويراها أصحاب على ، وكأنما كانوا يترقبون فرصة يكفون فيها عن القتال فيرون فى هذا حجة كافية ، ويكفون ويحتجون بكتاب الله ، ويدور على بعينه فى معسكر عدوه ليرى مطلع هذه البدعة فيجد أنه عمرو . وهنا ينكشف لعينيه سرها .. إنها خدعة . . إنها حيلة ، ولكن قومه لا يسمعون . وها هى صفين تنفض ، والأشتر يؤمر بالرجوع ، وينجو معاوية ، ويحول ابن العاص المعركة من حرب السيوف لحرب الفكر واللسان لكى يشل قوة على ، ولكى يكون هو فى ميدانه الصالح له . ثم انظر اليه يتدخل حتى فى اختيار على لمندوبه ... إنه ليتصل بالخونة من أنصار على ويوعز اليهم فيرفضون عبد الله بن عباس لأنه فتى ذكى مخلص لقضية على . ثم يرفضون الأشتر لأنه متفان فى خدمة ابن أبى طالب ، ولكنهم يؤيدون الأشعرى لأن عمراً يعرف أن بينه وبين على شيئاً ، وأن التفاهم قد يجدى معه كثيراً ، وينفض الجمع ليلتقى فى دومة الجندل

ترى فيم يفكر ابن العاص فى هذه الفترة ... فى مصر وأمورها ... لأنها ستعود اليه بعد قليل ... إنه يكيد لواليها الجديد قيس بن سعد بن عبادة الانصارى فيشيع فى حزب على أن قيساً قد انضم لحزب معاوية ، فيعزله على ويضع مكانه الأشتر النخعى فيموت الأشتر مسموماً عند « مسروره » بالقلزم فى ٥ رجب ٣٧ ... أترى لعمرو يداً فى ذلك ؟

ثم يكون التحكيم الذى لم يرو التاريخ مثله أبداً ، والذى لم يوفق مؤرخ فى روايته على أصله أبداً ، والذى يرفض العقل أن يقبله فى صورته التى وصلت الينا ... ولكننا نستطيع أن نفهم منه كيف كان الناس ينظرون إلى عمرو ! وكيف اعتبرته الأجيال أشد الناس لؤماً وأكثرهم خبثاً ... لقد وفق عمرو توفيقاً عظيماً ... ولم يكن توفيقه راجعاً الى مهارته فى الكيد وحدها ، بل الى وجود الضعاف والخونة فى صفوف خصمه وحسن استفادته من هؤلاء ... هذا هو يتدخل فى انتخاب مندوب على ويرضى أخيراً عن أبى موسى الأشعرى لا لأنه أبله أو شيخ كما يزعم الرواة ، بل لأنه غير راض الرضى كله عن على ... ولأنه قابل للفتنة مستعد للمساومة ؛ وهذا عمرو يخلو به ساعات طوالا يتحدث اليه فى الأمر : ويتفنن فى إقناعه ... وينفذ اليه من شتى السبل حتى يوفق الى تشكيك الرجل فى عدالة قضية على ، بل الى اتهامه بقتل عثمان ... فاذا خلص من هذا فقد أفهمه أن لعثمان أولياء يطلبون ثأره من القاتلين ... وأن الأولياء هم معاوية وعامة آل أمية ... فاذا خلص الى هذا فقد أقنع خصمه بعدالة ثورة معاوية ... ثم يسأله : فماذا ترى ؟.. فيصمت الشيخ فيقول عمرو : إننا نرضى بتنازل على ثمناً لدم عثمان ؛ فلا يرى أبو موسى حرجاً فى ذلك ... ويطرب لذلك عمرو ، فقد خسر منافسه الخلافة ولم يخسر هو شيئاً ... وهو إنما يرجو أن يخلع الخلافة عن على ليصير هو ومعاوية صنوين ... ثم إنه يعرف أن أنصار على ملتفون حوله لأنه خليفة ، فاذا زالت عنه الخلافة تفرقوا ... وقد أفلح ... بل إن أنصار على ليتفرقون قبل خلعه فى التحكيم ... ويصبح معسكره فوضى ... وينقض الخوارج ويتفرقون ويحاربهم فى النهروان ... كل هذا يرضى عمراً لأن فيه إضعافاً للخصم ، فاذا تم الأمر ونزعت الخلافة لم يصبح لعلى بعد ذلك شىء ويذهب أمره هباء

ثم يعلن الحكمان ما وصلا اليه : لقد رأينا خلع على [1] ... لقد ثارت الفتنة واضطرب الأمر وأسقط فى يد على وأنصاره ... وقد كسب عمرو كل شىء وأصبح على عاجزاً عن استنهاض همم جنوده لحرب معاوية ... وقد قوى أنصار هذا الأخير فخافهم الناس واتحد جند معاوية وقوى أمرهم واشتد ساعده بهم ، واستطاع أن يفصل عن على بلاده جزءاً جزءاً حتى إذا قتل سنة ٤٠ هـ لم يكن قد بقى فى يده من الأمر شىء

هكذا فعل عمرو : فرق الصفوف وأشاع الفتنة وأقام هذه الفوضى التى لم يخلص الاسلام منها الى أواخر أيامه ...

(١) هذا ما نراه ولا يعقل أن يكونا أعلنا خلع على ومعاوية لأن معاوية لم يكن خليفة فيخلع

لكى يصل الى شيء واحد . . مصر . . لقد باع الحق وارتهن الفضيلة ، وساوم على طمأنينة الدولة الاسلامية ليكسب شيئاً واحداً ، هو مصر بخيرها وبركاتها

وانظر اليه لقد أسرع الى مصر فى ستة آلاف مقاتل ، يقطع بهم سيناء على عجل سنة ٣٨ ﻫ ، فاذا أشرف عليها فقد أرسل يهدد محمد بن أبى بكر الصديق ليخلى بينه وبين ما يريد . ولكن محمداً رفض ، ولم يدر أن غريمه قد باع الدنيا والآخرة بهذا الذى يمارضه فيه ؛ والتقى الجمعان ، وفر محمد وتبعه معاوية بن حديج وقتله فى المنشاة

ثم انظر صراعه مع معاوية على مصر . إن الأول ليستكثر عليه هذا البلد الغنى الطيب ، وإنه ليراه غير أهل لتلك النعمة الوارفة . فانه لجالس ذات يوم فى نفر من صحبه وفيهم عمرو فيقول :

– ما أعجبُ الأشياء ؟ فيجيب يزيد ابنه :

– أعجب الأشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والأرض . . . وقال آخر :

– حظ يناله جاهل ، وحرمان يناله عاقل . وقال عمرو :

أعجب الأشياء أن المبطل يغلب المحق . فيسرع معاوية ويقول :

– بل أعجب الأشياء أن يعطى الانسان ما لا يستحق إذا كان لا يخاف

بلى فهو أعجب الأشياء ... وهل يستحق عمرو مصر وهو لا يخاف (الله)

ذلك رأى معاوية فى عمرو ... ثم انظر الى معاوية يحترس من عمرو فى كتاب توليته فيكتب : « على ألا ينقض شرطٌ طاعة ... » فيمسك عمرو بالقلم ويبطلها : « على ألا تنقض طاعةٌ شرطاً »

وعاش عمرو بعد ذلك ما شاء الله له أن يعيش ، وأنجاه الله من يد قاتله لكى ينعم قليلا بالشجرة الخضراء التى خسر فى سبيلها كل شيء . وتردد بين مصر والشام كثيراً ، ليجلس الى معاوية . . ثم ليخلو إلى أولاده ، وكانت مصر قد صارت له طعمة ، فاطمأن باله وترك الكفاح والجلاد ، ولكنه لم ينس الكسب والتجارة الى آخر أيامه ؛ فانه لجالس مع معاوية يوماً إذ سأله هذا ما بقى منك يا عمرو ؟ فيجيب : « مال أغرسه فأصيب من ثمرته وغلته . . »

أجل لا زال فى سن السبعين يفكر فى غرس المال والاصابة من ثمرته وغلته ؛ وهكذا ينبغى أن يفهمه الناس ، فان اجتهاده فى السياسة ونبوغه فى الحرب كان مصدرهما شيئاً واحداً : الرغبة فى الكسب والربح . . وقد انتهت جهوده الى شيء واحد ، لا هو الملك ولا هو الثواب . . بل ليست هى الآخرة نفسها وإنما هى مصر . . أغنى ولايات الدولة وأوفرها مالا . وقد مات وخلف ألف ألف درهم كما يقول المسعودى ودورا عديدة كان يمتلكها فى مصر والشام

(تم البحث) حسين مؤنس

وزارة المعارف العمومية

ادارة السجلات والامتحانات

اعلان

عن بعض مقررات امتحان شهادة الدراسة الثانوية قسم ثان لسنة ١٩٣٦

١ — كشف ببيان ما قررت الوزارة مطالعته ودراسته من كتاب : A Further Approach to Shakespeare على طلبة امتحان الشهادة الثانوية قسم ثان أدبى سنة ١٩٣٦

٢ — كشفان ببيان قطع المطالعة المقررة على طلبة السنتين الرابعة والخامسة وقطع المحفوظات الفرنسية المقررة على الطلبة فى جميع السنوات الدراسية سنة ١٩٣٦

٣ — كشف ببيان قطع المحفوظات الانجليزية المقررة على طلبة امتحان شهادة الدراسة الثانوية قسم ثان سنة ١٩٣٦

الكشوف الموضحة بعاليه أرسلت الى المدارس الثانوية الأميرية والحرة لاتباع ما جاء بها خاصاً بامتحان شهادة الدراسة الثانوية قسم ثان سنة ١٩٣٦

ويمكن للطلبة المتقدمين للامتحان المذكور من الخارج هذا العام الاطلاع على هذه الكشوف باحدى المدارس المذكورة